التأثير المحلى فى الرواية التاريخية الأندلسية

أ.د. أحمد مختار العبادى*

لكى ندرس حضارة أى عصر من العصور التاريخية، ينبغى أن ندرس الفكر الحضارى لأهل ذلك العصر وذلك عن طريق مخلفاتهم وسيرهم ولغتهم وعاداتهم... إلخ، لأن لكل عصر تقاليده وعاداته الخاصة به. وتدور هذه الدراسة حول التأثير المحلى فى الرواية التاريخية الأندلسية فى العصر الوسيط.

من المعروف أن الفتح العربى لأسبانيا (الأندلس)، قد تم فى عهد الخليفة الأموى الوليد عبد الملك بن مروان، وبقيادة موسى بن نصير وطارق ابن زياد سنة ٩٢ هـ / سنة ٧١١م.

---

* أستاذ متفرغ بقسم التاريخ، كلية الآداب (جامعة الإسكندرية).

والمهم هنا هو أن هذا الفتح العربى لم يكن مجرد حدث عسكرى صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى الشمال ثم هبطت إلى أقصى الجنوب مثل قياس الحرارة أو الترمومتر، بل كان حدثا حضارياً امتزجت فيه حضارات سابقة كالفينيقية والرومانية والقوطية، مع حضارة جديدة لاحقة، وهى الحضارة الإسلامية العربية، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة وصلت إلى الفكر الأوروبى المجاور وأثرت فيه، كما تغلغلت فى الحياة الأسبانية وتركت فيها آثاراً عميقة مازالت معالمها واضحة إلى اليوم.

ولاشك أن وضع الأندلس الجغرافى فى الأطراف الغربية البعيدة للعالم الإسلامى، وبجوار الغرب المسيحى فى قلب أوربا، قد جعلها فى مواجهة مستمرة مع الدول اللاتينية هناك، وهذا جعلها بالتالى أكثر الدول الإسلامية معرفة وتأثيراً وتأثراً بها. ذلك لأن الحياة الإسلامية فى شبه جزيرة إيبيريا، لم تعرف الانفصال الجغرافى أو العنصرى أو الحضارى بين المسلمين والمسيحيين، بل كانت هناك حياة مشتركة بينهم.

وهذا التداخل والتواصل المستمر بين الإسلام والمسيحية فى شبه جزيرة إيبيريا أعطى الأندلس . رغم تعلقها بالوطن الأم بالمشرق . أعطاها طابعاً فريداً، وشخصية مميزة، بحيث يمكن القول : إن الحضارة الأندلسية حضارة إسلامية عربية أسبانية، ولا يمكن أن نسميها إلا بهذه التسميات الثلاث. ولا شك أن هذا التداخل الحضارى المشترك، قد تأثرت به أيضاً كتابة التاريخ الأسبانى بشقيه الإسلامى والمسيحى فى العصر الوسيط مما جعل المصادر العربية الأندلسية، والحوليات المسيحية الأسبانية، تمثل مظهراً رائعاً لذلك الدور الثقافى الذى قامت به أسبانيا فى مزج حضارتى الشرق والغرب معاً.

لقد أقبل الأندلسيون على كتابة تاريخ بلدهم الأندلسى بولع شديد فهو عندهم تاريخ عربى اسلامى يعتد بعروبته وعقيدته، وقد بلغ حماسهم به إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول المؤرخ الغرناطى ابن سعيد المغربى. فالتاريخ

الأندلسى فى مظهره ومنهجه وأسلوبه، تاريخ عربى إسلامى، له شخصيته التى لم تلبث أن فرضت نفسها على المدونات والحوليات والملاحم الأسبانية وأثرت فيها بشكل واضح ملموس.

على أن الذى يهمنا فى موضوعنا، هو أن هذا العطاء الثقافى العربى الذى تأثرت به المصادر الأسبانية المسيحية، كان يقابله فى الوقت نفسه أخذ من الثقافة المحلية الأوربية اللاتينية فى هذا الحقل التاريخى وذلك لأن الأمة الأسبانية التى اندمجت فى جسم الدولة الأندلسية بالأندلس لم تدخل بأشخاصها فقط، بل دخلت بتاريخها وحضارتها أيضاً إذ لا يمكن فصل ماضيها عن حاضرها، ومن ثم عكف المؤرخون الأندلسيون على تقصى الحقائق وتلمس الأخبار من مختلف مظانها القديمة لمعرفة تاريخ بلدهم الأندلس منذ العصور السابقة للحكم الإسلامى فى أسبانيا أيام الرومان والوندال والقوط إلى جانب معرفة أخبار الأمم الأسبانية والأوروبية المعاصرة والمصاقبة لهم.

أولاً : التأثير اللاتينى فى الرواية الأندلسية:

من أهم المصادر اللاتينية القديمة التى اعتمد عليها الأندلسيون فى هذا الصدد، كتاب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين:

Historiarum Libri Septemadursos Paganos:

للراهب الرومانى الأسبانى Paulus Orosius هروشيوس الذى عاش فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الميلادى. والكتاب تاريخ للعالم القديم منذ بدء الخليقة حتى أيامه سنة ٤١٦م ثم أضيفت اليه تكملة بعد ذلك لتاريخ القوط إلى دخول طارق بن زياد عليهم فى أسبانيا. وهذه الإضافات فى أغلب الظن نقلت من مؤرخين لاتينيين ونظراً لأهمية هذا الكتاب تاريخ هروشيوس، فقد أمر الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر الذى حكم الأندلس من ٣٠٠ . ٣٥٠ هـ / ٩١٢ . ٩٦١م). أمر بترجمة هذا الكتاب من اللاتينية إلى العربية وقام بهذه الترجمة الفقيه الأندلسى قاسم بن اصبغ البيانى (نسبة إلى بلدة بيانه Baena من أعمال قرطبة) بالاشتراك مع قاضى النصارى الوليد

بن الخيزران المعروف بابن مغيث ولقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون من هذا الكتاب ونص بعضهم صراحة على ذلك أمثال الرازى والعذرى والبكرى والإدريسى وابن خلدون وغيرهم. وقد قام المرحوم الدكتور عبد الرحمن بدوى بنشر وتحقيق هذا الكتاب فى بيروت قبل وفاته بسنوات قليلة (سنة ١٩٩٠م)[١]. وهناك مؤرخ اسبانى لاتينى قديم آخر أعتمد عليه المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون فى تاريخ الفترة السابقة للحكم الإسلامى فى أسبانيا وهو القديس ايزودورو الأشبيلي San Isidoro الذى تطلق عليه المصادر العربية اسم اشيدور وقد عاش من سنة ٥٦٠ إلى سنة ٦٣٦م وكان أسقفاً لمدينة اشبيلية وكتب عدة كتب من أهمها كتاب مشاهير الرجال وكتاب أصول الكلمات (Etimologias) فالمؤرخ الأندلسى أحمد بن عمر العذرى المعروف بابن الدلائى نسبة إلى دلاية Dalias إحدى قرى المرية (توفى سنة ٤٧٨/ ١٠٨٤م) فى كتابه ترصيع الأخبار والمسالك الى الممالك الذى نشره المرحوم د. عبد العزيز الأهوائى، ينص صراحة على اسم إشيدور حين يتحدث عن ملوك القوط وعن مدينة طالقه Italica الرومانية القريبة من اشبيلية والتى مازالت آثارها باقية إلى الآن[٢]. كذلك نقل عنه الجغرافى الأندلسى أبو عبيد البكرى (ت سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٤م) أوصاف بعض النواحى مثل الجزء الخاص بوصف جزائر Fortunatas ويسميها فرطناطش وهى المسماة بالسعادات أو الخالدات أوز جزر كناریاس[١].

---

(١) يعتبره المؤرخون ذيلا لكتاب "مدينة الله" للقديس أوغسطين (حسين تونس . تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس ص ١٩ . ٢٠ . مدريد سنة ١٩٦٧) .

(٢) راجع (العذرى : كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ولبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك، نشر وتحقيق عبد العزيز الأهوائى، مدريد ١٩٦٥).

(٣) راجع (بالنثيا : تاريخ الفكرى الأندلسى ص ٣١١، ترجمة حسين مؤنس). وجزر كناریاس Canary تقع فى شمال غرب أفريقيا ويظن البعض ن اسمها على اسم عصفور كناريا، والواقع أنها تسمى على اسم كلب Canis وهو باللاتينى كلب لا العصفور كناريا. ذكر المؤرخ الرومانى بلينى Pliny (٦٢ . ١٢٥م) أن الملك جوبا الثانى ملك موريتانيا أطلق على هذه الجزر اسم Canarias عندما شاهد فيها كلابا كثيرة تجول رائحة جائبة. أما الكناريا العصفور فمعناها الحرفى هو عصفور جزيرة الكلاب A bird of the dog Island.

وهذه النقول تدل على حرص المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين على الاستفادة من تراث الأقدمين ولاسيما المصادر اللاتينية. لقد حكم الرومان أسبانيا وأعطوها اسمها (Hispania) مدة تزيد على ستة قرون من سنة ٢١٨ قزم إلى سنة ٤٠٩م وهى مدة كافية لإعطاء شبه جزيرة إيبيريا الطابع الرومانى بلغته اللاتينية التى اختلطت باللهجات المحلية وتكونت منهما اللغة الرومانسية Romance وهى لهجة عامية مشتقة من اللاتينية ومنها تكونت اللغة الأسبانية ويسميها الأندلسيون الأعجمية أو العجمية أو اللاطينية. وكان من الطبيعى نتيجة هذا الاختلاط الكبير بين الفاتحين وبين أهالى البلاد الأصليين عن طريق الحروب المتصلة والزواج المشترك، أن يتأثر أبناؤهم المولدون بأمهاتهم الأسبانيات فى لغتهم وأسمائهم وعاداتهم وأغانيهم موشحاتهم وأزجالهم بخرجاتها الأسبانية وطرائق معيشتهم. ونجد ذلك واضحاً فى كلام أبى محمد على ابن حزم القرطبى فى كتابه جمهرة أنساب العرب حينما يتحدث عن انتشار اللغة الأسبانية بين الأندلسيين ويعجب أن قوما من قبيلة بلى من قضاعة لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم[1] فاستثناؤه لقبلية بلى يدل على أن الكلام بالأسبانية كان شائعاً بالأندلس، وحتى هذه القبيلة بلى . والنسبة اليها بلوى . يقول أن افراها لا يحسنون ولم يقل لا يعرفون أى أنهم يعرفونها ولكنهم لا يجيدونها إجادة تامة. كذلك إذا تصفحنا كتاب قضاة قرطبة، لمحمد ابن حارث الخشنى (ت ٣٦١هـ/٩٧١م)، نجد فيه إشارات وأمثلة عديدة لقضاة اندلسيين كانوا يتكلمون الأعجمية ويناقشون المتهمين بها أثناء المحاكمة.

هذا، إلى جانب كثرة اتخاذ الأندلسيين أسماء أسبانية كماورد فى تراجم الأمراء والقادة والكتاب مثل: ابن قزمان Guzman (الزجال)، ابن القوطية Hijo de la Goda ابن بشكوال (المؤرخ) Pascual، ابن مردنيش Martinez، (الأمير) ابن لب El Lobo أى الذئب أو السبع عندهم، الحاجب شنجول Sanchuelo، والسلطان الغرناطى محمد البرميخو Bermejo أى الأِقر، ابن الربرتير Reverter أحد قواد الموحدين .. إلخ.

---

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٤١٣ نشر عبد السم هارون (القاهرة سنة ١٩٧١).

كذلك من مظاهر التأثير الأسبانى على الأسماء العربية فى الأندلس إضافة المقطع الأسبانى الأخير الذى يتكون من الواو و النون on بالأسبانية للدلالة على التفخيم أو التكبير أو التعظيم فالأسبان يقولون مثلا Soltero العازب، Solteron العانس Cabeza رأس، Cabezon كبير الرأس، Melagron معجزة عجيبة و على غرار ذلك فى الأسماء الأندلسية : حفص حفصون، خالد خالدون، زيد زيدون، (الشاعر) غالب غالبون، (القائد) نزهة نزهون (القلاعية الغرناطية) حمدة حمدون، (بنت زرياب المغنى) ... الخ وان كنا لا نستبعد أن يكون مقطع الواو والنون هذا قد انتقل من المشرق من لبنان عن طريق الفينيقيين أو غيرهم الى أسبانيا . فكثير من أسماء العائلات اللبنانية الأصلية القديمة تنتهى بحرفى الواو والنون مثل شمعون وشقرون وحمدون وبيضون ... الخ وإن كنا لا ندرى إن كانت هذه الأسماء تدل أيضاً على معنى التفخيم أو التكبير كما هو الحال فى الأندلس.

وظل أخذ المؤخرين الأندلسيين من الرواية الأسبانية مستمرا حتى نهاية الحكم الأسلامى فى أسبانيا، وكان هذا أمراً طبيعياً – كما أسلفنا – بحكم الجوار والمعايشة بالإضافة إلى ما عرف عن الأندلسيين من ولع شديد بعلم التاريخ، لهذا أقبلوا بحكم هذه الحاسة التاريخية على معرفة أخبار الممالك المسيحية الأسبانية والأوروبية المصاقبة لهم وتدوين ذلك فى مؤلفاتهم.

ومن أمثلة هؤلاء المؤرخين الأندلسيين نذكر :

١. أبو بكر محمد القرطبى المعروف بابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس. عاش فى القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى (توفى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧م) وواضح من أسمه أنه من سلالة امرأة قوطية إسبانية و هى الأميرة سارة حفيدة ملك أسبانيا القوطى غيطشة Witiza وقد تزوجها القائد العربى عيسى بن مزاحم فى دمشق عندما ذهبت الى هناك لبحث ميراث أبيها مع الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ثم عادت مع زوجها الى أسبانيا ومن سلالتها جاء

هذا العالم أبو بكر محمد بن القوطية الذى تأثرت كتابته بتلك النزعة الوطنية الأسبانية التى ينتمى إليها فيروى قصصاً شعبية من هذا الطابع المحلى الأسبانى الأصلى مثل قصة أحد أجداده الكونت أرطباس بن غيطشة الذى كان أول قومس Gomez أى رئيس لأهل الذمة النصارى بأسبانيا الإسلامية، فنراه يمدح هذا الأمير ويصفه بالسياسة والعلم والكرم بينما يهاجم القائد العربى زعيم القيسية الصميل بن حاتم ويصفة بالجهل والأمية ويسوق فى ذلك قصة المعلم الذى كان يقرأ على الصبيان الآية "وتلك الأيام نداولها بين الناس" فقاطعه الصميل بأن الآية تقول "وتلك الأيام نداولها بين العرب"!، وبعد أن اقتنع الصميل بخطأ رأيه صاح قائلا "سبحانك ربى أن تجعل الحكم فى أيدى أراذل الناس دون العرب!"[(١)]

٢. وإلى جانب ابن القوطية هناك المؤرخ والطبيب القرطبى أبو الحسن عريب بن سعد (توفى سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) فى كتابه صلة[(٢)] تاريخ الطبرى الذى حاول فيه تصحيح بعض الأخبار الشائعة بين الناس عن أحداث الفتح العربى للأندلس مثل قوله وأصاب طارق مائدة منظومة بالدر والياقوت والزبرجد، وهى التى يزعم الناس أنها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، ولم تكن كلك غير أن أهل الحسبة (أى الأغنياء) من العجم كانوا إذا حضرتهم الوفاة، وأوصوا للكنائس بمال كثير تصنع منه كراسى توضع عليها مصاحف الإنجيل فى الأعياد فكانت تلك المائدة مما يتفوق فيه الملوك [(٣)] . هذه الرواية تدل على تلك

---

(١) راجع ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٨، نشر بباسكوال دى جاينجوس وترجمه إلى الأسبانية خوليات ريبيرا (مدريد ١٩٢٦).

(٢) يكتب فى بعض الأحيان مختصر تاريخ الطبرى، والواقع أنه ذيل على تاريخ الطبرى، ولاسيما فى أحداث المغرب والأندلس، لأن الطبرى اهتم بصفة خاصة بأحداث المشرق. ولقد نشر دى خويه De Goeje (ليدن سنة ١٨٩٧) الجزء الخاص بتاريخ المشرق من كتاب عريب. أما الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس، فلا نعلم عنه سوى ما رواه دوزى فى مقدمته لكتاب البيان المغرب من أن ابن عذارى نقل قطعاً من تاريخ عريب فى الجزء الثانى من كتابه لبيان الغرب.

(٣) راجع (أحمد مختار العبادى : تاريخ الأندلس لابن الكردوبوس ووصفه لابن الشباط، ص ١٤٩، مدريد سنة ١٩٧١).

المعايشة التى مكنت عريب إعطاء هذا التفسير الجديد وقد لاحظ ذلك المؤرخ التونسى ابن الشباط (توفى سنة ٦٨٤ هـ) عند قوله " وأعلم أن هذا القول من عريب غريب، لم يذكره فيما علمت غيره، وإنما ذكروا كلهم أنها مائدة سليمان ابن داود.[١] كذلك انفرد عريب بن سعد برواية تاريخية هامة نقلها عنه ابن عذارى عند قوله فى فتح الأندلس "إن موسى بن نصير نهض بنفسه الى لقاء الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بدمشق واستشاره فى فتح الأندلس فأشار عليه بأن يختبرها بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين[٢] وهذه الرواية تختلف عن بقية الروايات التى تجمع على أن الاتصال بينهما تم بطريق المراسلة والمكاتبة. هذا ومن المعروف أن عريب كان أيضاً طبيباً للخليفة الحكم المستنصر بن الرحمن الناصر وكتب كتاباً فى أمراض النساء وكتاباً آخر سماه تقويم قرطبة وهو تقويم حسابى فلكى يتناول علاقة الشمس بالمحاصيل الزراعية فى فصول السنة المختلفة بالأندلس. وقد نشره دوزى كملحق لكتاب البيان المغرب لابن عذارى تحت عنوان تقويم قرطبة لسنة ٩٦١م :

(Le calendrier de cordoue de l'annee 961)

٣. وهناك أيضا العالم القروى (نسبة إلى القيروان) القاضى محمد بن حارث الخشنى (ت ٣٦١هـ / ٩٧١م) الذى سبقت الاشارة اليه والذى انتقل من القيروان الى قرطبة بدعوة من الخليفة العالم الحكم المستنصر الذى أباح له الاستفادة من مكتبة القصر الخلافى العامرة بالكتب فكتب كتابه "القضاه بقرطبة" تحدث فيه عن عادات الأندلسيين ولباسهم وازدواجية اللغة بينهم (العربية والعجمية) ولاسيما بين القضاة والمتهمين فى المحاكم. كذلك أعطانا الخشنى معلومات قيمة عن نظام القضاء فى الأندلس وقارن بينه وبين نظام القضاء فى المشرق الإسلامى فكبير القضاه فى الأندلس كان يسمى بقاضى

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والغرب جـ ٢، ص ٦.

الجماعة (جماعة أهل قرطبة) ونفوذه قاصر على العاصمة قرطبة فقط، ولا يمتاز عن بقية القضاة فى الأقاليم الأندلسية الا من الناحية الأدبية فقط باعتباره قاضى العاصمة ومستشار الخليفة، أما فالمشرق فكبير القضاة فى مصر أو العراق كان يعرف بقاضى القضاة وكان نفوذه أوسع بكثير من نفوذ قاضى الجماعة فى الأندلس فهو الذى يعين ويعزل القضاه فى جميع الأقاليم فهو قاضى الدولة كلها ومن سواه فى الولايات نواب عنه[1] فالنظام الإدارى فى المشرق اتسم بالمركزية بينما اتسم فى الأندلس باللامركزية ولعل صعوبة العامل الجغرافى كان له دخل كبير فى هذه اللامركزية التى اتسمت بها أيضاً خطة الوزارة فى الأندلس حيث كانت على عهد الدولة الأموية متعددة الوزارات ولها رئيس وزراء يسمى الحاجب الذى يتصل بالخليفة مثل الوزارات الحديثة. وهذا التعدد فى مناصب الوزارة لا نجده فى نظام الوزارة بالشرق العربى أو الغرب الأوربى حيث كانت الوزارة مركزة فى يد وزير واحد مما يدل على الإسهام الحضارى الكبير الذى تميزت به الأندلس فى هذا الشأن[2].

٤. ومن المؤرخين الأندلسيين البارزين ايضاً صاعد الأندلس أو الطليطلى (توفى سنة ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) درس فى قرطبة وتولى القضاء فى طليطلة شمالاً، واشتهر بالفقه والتاريخ والحساب وعلم الهيئة أى الجغرافيا الرياضية أوالفلكية وله كتاب "طبقات الأمم" (نشره شيخو فى بيروت سنة ١٩١٢م وترجمه بلاشير إلى الفرنسية سنة ١٩٣٥). والكتاب رغم صغر حجمه الا أنه يتضمن معلومات مفيدة عن الأمم التى تعاطت العلوم العقلية، والأمم التى لم تتعاطاها. مثال ذلك إشارته الهامة إلى ما حدث فى قرطبة أيام الحاجب المنصور بن أبى

---

(١) راجع (الخشنى: كتاب القضاه بقرطبة، ص ٩٦، ص ١٣٨ . ١٣٩، نشر الكتاب مع ترجمة أسبانية خليان ريبير Ribera مدريد سنة ١٩١٤، ثم أعاد نشره عزت العطار الحسينى (القاهرة سنة ١٩٥٤).

(٢) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢، ص ١٢١، ابن خلدون: المقدمة ص ٢٣٨ . ٢٤٠).

عامر (ت سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢م) من حرقه لكتب الفلسفة والرياضة والفلك وغيرها من العلوم لإرضاء الغوغاء من العامة مما أدى إلى هجرة الكثيرين من علماء قرطبة وغيرها الى الثغور الشمالية مثل سرقسطة عروس نهر الإبرو Ebro وقاعدة الثغر الأعلى، وطليطلة عروس نهر التاجو Tajo وقاعدة الثغر الأدنى. وهناك وجدوا روح التسامح العلمى وحرية الفكر خلال عصر ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى (١١م) فى كنف بنى هود الجذاميين ملوك سرقسطة، وبنى ذى النون فى طليطلة. وظل هذا الازدهار سائداً فيها حتى بعد سقوطها فى أيدى الأسبان. ونخص بالذكر حركة النقل والترجمة فى عهد الملك الفونسو العاشر الملقب بالعالم El Sabio فى القرن الثالث عشر الميلادى.

٥. ومن أعظم المؤرخين الذين كتبوا عن أخبار الممالك المسيحية الأسبانية التى عاصرت الحكم الإسلامى فالأندلس نذكر المؤرخ القرطبى أبا مروان بن حيان (ب سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩م) فلقد ثبت من الأخبار التى أوردها فى كتابيه المقتبس والمتين[١]، أنه على دراية واسعة بكل ما يتعلق بتاريخ اسبانيا بوجه عام حتى أيامه، بل وأيضاً بعض جوانب من التاريخ الفرنسى فيما وراء جبال البرتات فى الشمال. ومثال ذلك انفراده باخبار الجحافل التركية المجرية الوثنية التى جاءت من وسط أوربا وأغارت على شمال شرق الأندلس فى القرن العاشر الميلادى واحتلت مدينة بربشتر Barbastro فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر فاثارت ذعراً وإرجافاً ثم انسحبت بعون الله من تلقاء نفسها

---

(١) كتاب المقتبس فى أخبار بلد الأندلس، لأبى مروان خلف بن حيان، وصل الينا منه خمس قطع، تناولت عهود الأمراء الحكم الربضى وعبد الرحمن الثانى وولده محمد وعبد الله بن محمد والخليفة عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر، وقد نشرت كلها. أما كتاب المتين الذى يؤرخ الأحداث التى عاصرها، فهو مفقود للأسف، ولكن المؤرخين الذين جاؤا بعده نقلوا عنه فى كتبهم، نخص بالذكر منهم أبا الحسن على بن بسام فى كتابه الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة.

نتيجة لبرودة الشتاء وقلة الموارد[١]. ولقد أثار ما كتبه ابن حيان عن الممالك الأسبانية والأوروبية دهشة المؤرخين الذين رأوا فى تفسير ذلك أنه لابد وأن يكون على دراية باللغة اللاتينية التى مكنته من الإطلاع على المدونات المسيحية أو أنه كان على اتصال برواة العجم العارفين بأخبار هذه الممالك ولمعرفة المزيد من التفاصيل انصح بالرجوع إلى الدراسات القيمة التى كتبها الصديق العزيز الدكتور محمود على مكى فى مقدمة الأجزاء التى نشرها من كتاب المقتبس لابن حيان.

٦. وما يقال عن ابن حيان يقال أيضاً عن معاصره وصديقه المؤرخ والفقيه أبى محمد على ابن حزم القرطبى (توفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤م) وقد سبقت الإشارة اليه. ففى كتاباته نجد هذا الاعتزاز بنفسه ووطنه وثقافته مثل قوله:

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ولكن عيبى أن مطلعى الغرب

وفى مقدمة كتابه "طوق الحمامة فى الألفة والآلاف" يكرر هذه النزعة الإبداعية فى قوله: "ودعنى من ذكر أخبار الأعراب والمتقدمين فسبيلهم غير سبيلنا، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى"[٢]. وفى كتابه المعروف باسم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل[٣] نجد تاريخاً نقدياً مقارنا للأديان مما يدل على تحققه بكتابات اليهود والنصارى والروايات التلمودية والنصوص المسيحية التى هى غالباً ما تترجم عن اللاتينية والعبرية، وكل هذا يجعلنا لا

---

(١) احمد مختار العبادى: خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى فى سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤٢م. نص جديد للمؤرخ القرطبى أبى مروان بن حيان (المناهل العدد ٢٩ الرباط سنة ١٩٨٤).

(٢) كتاب طوق الحمامة يعتبر أول دراسة نفسية تحليلية لعاطفة الحب والمحبين وقد نشر وترجم إلى معظم اللغات العالمية.

(٣) كتاب الفِصَل (بكسر الفاء وفتح الصاد) نشر فى القاهرة سنة ١٣٢١ هـ، ونشر على هامشه كتاب الملل والنحل، للشهر ستانى الذى عاش بعد ابن حزم بنحو مائة سنة فى المشرق. وقد ترجم كتاب الفصل الى الأسبانية المستشرق الراهب الأسبانى أسين بلاثيوس Asin Palacios فى خمسة أجزاء، خصص الجزء الأول ونصف الجزء الثانى كدراسة تفصيلية هامة عن ابن حزم (مدريد ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨م).

نستبعد على ابن حزم أن يكون عارفا باللغة اللاتينية لاسيما وأنه تربى فى قصور الخلافة بقرطبة وتعلم على كبار علماء عصره إذ كان والده أحمد وزيراً للحاجب المنصور بن أبى عامر. وقد سبقت الإشارة إلى أن ابن حزم فى كتابه جهره انساب العرب كان يتعجب من أن قوماً من قبيلة بلى العربية لا يحسنون الكلام باللطينية بالإضافة إلى أنه فى نفس الكتاب يترجم بعض الأسماء اللاتينية ترجمة عربية صحيحة مثل قوله: ومن ولد أمية بن الحكم بن هشام، الوزير عبد الله بن عبد العزيز الملقب بالبيطره شقه ومعناه الحجر اليابس (وهى فعلاً بالأسبانية Piedra Seca وباللاتينية Petra Sica).[١] بهذا المعنى.

٧. مثل أخير نضربه بالمؤرخ والوزير لسان الدين بن الخطيب، وزير مملكة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة (توفى قتيلا سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م)، ففى رواياته التاريخية نلمس ذلك التداخل بين الثقافتين العربية والأسبانية مثال ذلك كثرة استخدامه للألفاظ والمصطلحات الأسبانية الى كانت سائدة بين مواطنيه مثل كلمة قاله Cala بمعنى خليج مثل قوله "لها ميناء وقاله"[٢]، ولعل اسم البرتغال أو البرتقال مشتق من اسم العاصمة بورتو وخليجها Porto Cala، ومثل كلمة قامره Camara مخزن أو غرفة، وكلمة لاطون بمعنى النحاس (الأنوار اللاطونية)، والبرطال Portal بمعنى المدخل، والشابل Sabalo نوع من الأسماك النهرية الموسمية فى أسبانيا والمغرب، القيموليا أوالطين الأندلسى يستخدم كمادة لاصقة وكذلك فى الصباغة وغسل الشعر، والعصير alacir ويطلق على عصير العنب أو على التين الرطب (الناعم) ولقد استغل هذه الألفاظ كل من المستشرق الهولندى دوزى فى معجمه (تكملة على المعاجم العربية)[٣] والمستشرق الأسبانى سيمونت فى معجمه الخاص بالألفاظ اللاتينية والايبيرية المتداولة بين المستعربين[٤] كذلك يفهم من كلام ابن الخطيب أن الغرناطيين توصلوا مع

---

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٩٨، ص ٤١٣ (نشر وتحقيق عبد السلام هارون، القاهرة سنة ١٩٧١).

(٢) قاله اسم مرفأ بساحل الجزار يصطادون منه المرجان.

(3) Dazy: Supplement aux Dictionnaires Arabes 2 tomes (Paris, 1929).

(4) Simonet: Glosario de voces Ibericas y & Latinas entre los Mozarabes (Madrid, 1888).

إخوانهم المغاربة[١] إلى اختراع نوع من الأسلحة النارية مثل المدافع تحدث دوياً وفرقعة كالرعد وتدك الحصون وتهدمها كالصواعق السماوية، فهو سلاح جديد يختلف عن سلاح النار الإغريقية المعروف من قبل والذى اقتصر عمله على الحرق فقط بينما كان هذا السلاح مادة متفجرة عبارة عن خليط من النفط وملح البارود أو النشادر والكبريت وحصى الحديد فى درجة حرارة عالية فى شكل كرة محماة تلقى علىالهدف فتدمره وسط هدير مروع. وفى ذلك يقول ابن الخطيب فى كتابه اللمحة البدرية[٢] : وفى سنة (٧٢٤ هـ / ١٣٢٤م) نازل سلطان غرناطه إسماعيل بن الأحمر بلدة أشكر Huescar فى جنوب الأندلس، ونشر عليها الحرب، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة محماة طاقة البرج المنيع فعاثت عياث الصواعق السماوية ونزل أهلها قسرا على حكمه. وفى ذلك يقول شيخنا أبو زكريا بن هذيل:

وظنوا بأن الرعد والصعق فالسماء فحاق بهم من دونها الصعق والرعد
غرائب أشكال سما هرمسى [٣] بها مهندمة تأتى الجبال فتنهد
إلا إنها الدنيا تريك عجائبا وما فى القوى منها فلابد أن يبدو

ومن الطريف أن المصادر الاسبانية المعاصرة فى وصفها لأحداث هذه الحرب، إشارات إلى هذا السلاح الجديد. ففى حوليات ثوريتا Zurita الأسبانية نجد العبارة التى تقول ما معناه: "وانشترت الاشاعات فى مدينة لقنت Alicante أن ملك غرناطة يمتلك سلاحاً جديداً مبيداً Una neueva arma Martifera" [٤]

---

(١) يروى ابن خلدون أن سلطان المغرب يعقوب المرينى، عندما هاجم مدينة سجلماسة (تافيللت الحالية فى جنوب المغرب) سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٢م نصب عليها هندام (آلة) النفط القاذف بحصى الحديد، ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال الى قدرة بارئها (العبر جـ ٧ ص ١٨٨).

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص ٧٢، نشر محب الدين الخطيب (القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ).

(٣) هرمس Hermes اله الفصاحة والتجارة والسرقة، ومبتكر صناعة الحياكة عند اليونان، ويسميه الرومان مركور Mercure أى الزئبق، وهو معدن سائل لا يعرف كيف يمسك. ويرى ابن خلدون (المقدمة ص ٤١٢) أن هرميس هو نفسه النبى إدريس أقدم الأنبياء، وكل هذه التشبيهات العديدة ترمز لغرابة الإختراع.

(٤) أنظر (G. Zurita: Anales de le corona de Aragon II P. 31 hota 1 y p. 99).

وواضح من النصوص السابقة ومن تواريخ أحداثها أن مسلمى المغرب والأندلس توصلوا الى استخدام الأسلحة النارية قبل ظهورها فى أوروبا لأول مرة فى موقعة Crecy سنة ١٣٤٦م فى حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا والتى انتصرت فيها انجلترا بسبب توصلها الى هذا الاختراع(١) بعد أكثر من سبعين سنة من بدء ظهوره على أيدى المسلمين فى حصار سجلماسة سنة ١٢٧٢م وتجدر الاشارة إلى أن المسلمين استعملوا كلمة النفط بمعنى النار الاغريقية الحارقة وبمعنى المدفع الهادم ايضاً.

كذلك أفرد ابن الخطيب فى القسم الثانى من كتابه أعمال الاعلام(٢) فصلاً عن تاريخ الممالك المسيحية الأسبانية وهى قشتالة وأراجون والبرتغال ونص صراحة على أنه استعان فى كتابته بسفير مملكة قشتالة يوسف بن وقار الاسرائيلى الطليطلى اثناء زيارته لمملكة غرناطة فى مهمة رسمية وأنه استخرج هذا التقييد من الكتاب الذى أمر بعمله الملك الأعظم دون الفتش أى ملك قشتاله الفونسو العاشر الملقب بالحكيم أو العالم El Sabio.

وليس بعيداً أن يكون لابن الخطيب دراية باللغة الاسبانية، ففى حوليات ملوك قشتاله التى كتبها المؤرخ الأسبانلوبث دى ايالا Lopez de Ayala(٣) وهو معاصر لابن الخطيب، نجد مجموعة من الرسائل باللغة الاسبانية موجهة من ابن الخطيب Ben Hattin إلى ملك قشتاله بدور القاسى(٤) Pedro el Cruel

---

(١) راجع عرضنا لكتاب David Ayalon, Gun powder and fire arms فى مجلة هسبريس (Hesperis: 1959 fasc. 3 Trimestres 4 p. 244).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . القسم الثانى الخاص . باسبانيا . ص ٢٢٢ نشر ليفى بروفنسال (بيروت سنة ١٩٥٧).

(٣) أنظر (Lopez de Ayala: Cronica de los Reyes de Castilla Vol. I P 493, Madrid 1779).

(٤) لقب هذا الملك بالقاسى El Cruel لأنه كما يشاع عنه كان يقتل زوجاته، وأن كان البعض يلقبه بالعادل Justiiero للسبب نفسه !! .

وهى على شكل نصائح ومواعظ أخلاقية وتوجيهات سياسية يحذره فيها من مكائد الذين حوله من أنصار أخيه المنافس له على العرش Enrique de Trastamara ويشيد بالصداقة التى تربط ملك قشتاله بسلطانه ملك غرناطه محمد الخامس الغنى بالله.

ومن الطريف أن ابن الخطيب يؤيد ما جاء فى هذه الحوليات الاسبانية إذ يذكر فى كتابه الاحاطة فى أخبار غرناطة أن سلطانه محمد الغنى بالله اذن له بتوجيه الوعظ إلى صديقه بطره ملك قشتاله وأنه نفذ الأمر وتلقى رداً من الملك القشتالى يشكره فيه على نصائحه ويعده بالعمل بها(١). وكل هذا يبين بوضوح مدى الأخذ والعطاء الذى تميزت به الرواية الاسبانية بشقيها العربى والأسبانى. كذلك يشير ابن الخطيب فى احاطته إلى الشهرة العلمية التى تمتع بها العلماء الأندلسيون فى جميع أنحاء اسبانيا لدرجة أن طلاب العلم هرعوا إلى دورهم كما تنافس الملوك على اجتذابهم مثال ذلك قوله إن العالم الغرناطى عبد الله بن سهل (القرن السابع الهجرى أو الثالث عشر الميلادى) كانت له شهرة كبيرة فى العلوم الرياضية لدرجة أن المسيحيين فى شتى نواحى أسبانيا كانوا يرحلون إلى داره فى مدينة بياسة Baeza (شمال شرق جيان) لمحاورته والاستفادة من علمه(٢). وفى موضع آخر من أحاطته يقول ابن الخطيب أنه كان يعيش فى مدينة مرسية Murcia بشرق الأندلس حينما كانت خاضعة لملك قشتاله الفونسو العاشر الملقب بالعالم El Sabio، عالم كبير اسمه محمد بن ابراهيم الأوسى ويعرف بابن الرقام، وأنه كان فريد دهره علماً بالحساب والهندسة والطب وقد نجح سلطان غرناطة من بنى نصر أو بنى الأحمر السلطان محمد الثانى الملقب بالفقيه أى العالم ، نجح فى اجتذاب هذا العالم الى

(١) ابن الخطيب : الاحاطة فىأخبار غرناطة جـ ٢ ص ٥٥ . ٥٦ (طبعة القاهرة).

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة فى أخبار غرناطة (نسخة الاسكوريال) ورقة رقم ٢٢.

غرناطة، فانتفع الناس به وتوفى فى غرناطة سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٦م[١]. وفى موضوع ثالث من الاحاطة يضيف ابن الخطيب عالماً من مدينة مرسية أيضاً كان يعيش فى كنف الملك الأسبانى الفونسو العالم اسمه محمد بن أحمد الرقوطى[٢] المرسى الذى كان ملماً بمعرفة المنطق والهندسة والعدد (أى الحساب) والموسيقى والطب، وأنه كان يجيد المعرفة بالألسن فيقرئ الأمم بألسنتهم فنونهم التى يرغبون فى تعلمها. ولقد عرف له الملك الفرنسو العالم حقه فبنى له مدرسة فى مدينة مرسية يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود، واستمر معظما عنده. ومما يحكى من ملحة ونوادره معه، أن الملك الفونسو العالم قال له يوماً وقد أدنى منزلته وأشاد بفضله: "لو تنصرت وحصلت الكمال، كان لك عندى كذا وكذا، وكنت كذا وكذا !! فأجابه الفقيه الرقوطى بما أقنعه. ولما خرج الفقيه من عنده قال لأصحابه: "أنا الآن أعبد واحداً عجزت عما يحب له، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما أراد منى ! ؟"

ومن الطريف أن ملك غرناطة محمد الفقيه نجح فى هذه المرة أيضاً فى استقدام هذا العالم القرقوطى من مرسيه الى غرنانطة حيث أسكنه فى أعدل وأحسن البقع فى عاصمته غرناطة. وكان الطلبة يغشون منزله، فتعلموا على يديه الطب والهندسة والمنطق، إذ كان لا يجارى فى ذلك. ومن الطريف أن الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب الذى عاش بعد الرقوطى بقليل حينما يتحدث فى إحاطته عن المنزل الذى كان يعيش فيه هذا العالم القرقوطى، يقول: "وهو بيدى الآن" !![٣] أى أن هذا المنزل صار من ممتلكات ابن الخطيب. وهكذا ترى مما تقدم أن روح المنافسة والمشاركة العلمية كانت سائدة بين علماء وطلبة أسبانيا الإسلامية والمسيحية، بل كانت سائدة أيضاً

(١) الاحاطة ورقة رقم ١٠٧.

(٢) الرقوطى نسبة الى رقوطة Ricote اسم جبل مرتفع فى شمال غرب مرسيه.

(٣) الإحاطة ورقة رقم ١٠٧.

علـى مسـتوى الملـوك بـين سـلطان غرناطـة محمـد الفقيـه أو العـالم وبـين جـاره وصـديقه فـى أشـبيلية الفونسـو العاشـر العـالم El Sabio أو الفقيـه بـالمفهوم الأندلسى. وكل هذا كان من ثمار تأثير البيئة المحلية فى الرواية الأندلسية.

ثانيا : التأثير الأغريقى اليونانى فى الرواية الأندلسية :

إلى جانب هذا التأثير اللاتينى الاسبانى السالف الذكر فى الرواية الأندلسية بحكم الجـوار والمعايشـة، هنـاك أيضـاً التـأثير اليونـانى أو الأغريقـى عـن طريـق المسـالك الشـرقية التـى ربطـت الأنـدلس بـالوطن الأم فـى المشـرق الأسـلامى حيـث ازدهـرت الحضارة الهلنستية فى العصر العباسى، كما ربطت هذه المسالك الأندلس أيضاً ولأول مـرة بعلاقـات سياسـية وحضـارية وطيـدة بالإمبراطوريـة البيزنطيـة التـى كانـت لغتهـا الرسـمية هـى اللغـة اليونانيـة[1]. ولا شـك أن هـذه العلاقـات الوديـة بـين القسـطنطينية وقرطبة، قد صاحبتها سفارات دبلوماسية وهدايا ومعلومات علمية، كان لها أثر يونـانى واضح فى الحضارة الأندلسية.

ومن أمثلـة ذلك السفارة التـى أرسلها الامبراطـور البيزنطـى قسطنطين السابع إلـى الخليفـة الأمـوى عبد الرحمن الناصـر سنة ٣٣٧ هـ/ ٩٤٨م)، وكـان من جملـة الهدايا نسـخة خطيـة من الكتـاب اليونـانى الشـهور باسم الأدويـة المفردة Materia Medica أو كتاب الحشائش الذى ألفه ديوسقوريدس Dioscoride وهو طبيب عشاب يونـانى عاش فـى القرن الأول الميلادى فـى بلـدة عين زربـة Anzarbio قرب طرسـوس فـى جنـوب أسيا الصـغرى . ونظراً لأهمية هذا الكتاب فى مجال الطب

---

(١) مـن المعـروف، ان الإمبراطوريـة البيزنطيـة (أو الرومانيـة الشـرقية) بـدأت فيهـا اللغـة اللاتينيـة، كلغـة رسميـة منـذ تأسيس القسطنطينية فى القرن الرابع الميلادى وحتى القرن السادس الميلادى. وفى خلال هذه المدة أخذت اللغة اليونانية تزداد انتشاراً على حساب اللاتينية، بحيث لم يأت القرن السابع الميلادى أو الأول الهجرى حتى أعلنت اللغة اليونانية أنها اللغة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية.

والصيدلة، فقد أمر خليفة الأندلس عبد الرحمن الناصر بترجمته إلى العربية[١]، وشكلت لجنة علميةلهذا الغرض، كان من بين أعضائها الطبيب عبد الرحمن بن الهيثم، وأبو عبد الله الصقلى الذى كان يجيد اللغة اليونانية وله المام بتركيب العقاقير، والراهب اليونانى نيقولاس الذى كان يجيد اللغة العربية والذى أرسله الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع للمشاركة فى ترجمة وشرح هذا العمل العلمى الكبير[٢]. ويروى أن هذاالراهب ساهم ايضاً فى ترجمة مؤلفات اغريقية أخرى الى العربية، بل أخذ يعلم الأندلسيين اللغة الاغريقية، فأثارت دروسه حماساً واقبالاً كبيراً، وحضرها بعض كبار رجال الدولة أمثال الوزير الطبيب اليهودى حسداى بن شبروط[٣].

لقد أثار ظهور هذه الترجمة العربية الكاملة لكتاب ديوسقوريدس موجة من الحماس بين الأندلسيين، فأقبلوا علىدراسته وشرحه ثم الإضافة اليه من تجاربهم الخاصة لاسيما وأن بلاد الأندلس كانت غنية بأنواع عديدة من النباتات التى لم تكن معروفة للمؤلف الاغريقى ديوسقوريدس، مثال ذلك أبو داود سلميان بن جلجل طبيب الخليفة هشام الثانى (المؤيد بالله) الذى كتب ملحقاً لديوسقوريدس فيه اضافات

---

(١) سبق أن ترجم كتاب ديوسقوريدس الى العربية ترجمة جزئية غير كاملة قبل ذلك الوقت بنحو قرن من الزمان فى بغداد على عهد الخليفة العباسى المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) غير أن المترجم له واسمة اصطفان باسيل لم يترجم سوى بعض أسماء الأدوية لعدم معرفته بما يقابل اليونانية فيها، ولهذا ظلت اسماء العقاقير على صورتها اليونانية بحروف عربية إلى أن تمت الترجمة الكاملة للكتاب فى الأندلس.

(٢) راجع (ابن عذارى: البيان المغرب ج٢، ص ٣١٣ - ٣١٥،المقرى: نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج١، ص ٣٢٤) وقد ورد أن النسخة الخطية الأندلسية من هذه الترجمة العربية محفوظة فى مكتبة البودليانة بأكسفورد. راجع (أوليرى دى لاسى: مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ص ٢٥٧، ترجمة دكتور تمام حسان ص ٢٥٧، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة سنة ١٩٥٧).

(٣) أوليرى دى لاس: المرجع السابق صـ ٢٥٦ - ٢٥٧.

جديدة[١]. وبالمثل يقال عن عبد الرحمن بن الهيثم، طبيب المنصور بن أبى عامر (ت سنة ١٠٠٢م)، والذى كتب عدة شروح على كتاب ديوسقوريدس. وهناك الطبيب عبد الرحمن بن وافد اللخمى (ت سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٢م) الذى كان وزيراً وطبيباً ليحيى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة (ت سنة ١٠٧٤م). لقد أطلع هذا الطبيب على كتب ديوسقوريدس وجالينوس فى الطب وكتب مؤلفاً ضخماً عن الأدوية المفردة ضمنه خلاصة تجارية التى تقوم على مبدأ التداوى بالتغذية أولاً ثم بالأدوية المفردة ثانياً، ثم بالأدوية المركبة اخيراً[٢]. كذلك نذكر إمام العشابين فى عصره ضياء الدين بن البيطار المالقى الأشبيلى صاحب كتاب "الجامع لمفردات الأغذية والأدوية"[٣]. سافر ابن البيطار إلى بلاد اليونان وأقصى بلاد الروم، كما سافر الى مصر والشام واتخذه الملك الكامل الأيوبى طبيباً خاصاً وجعله رئيساً على الحكماء وسائر العشابين ثم جعله مقدماً فى دمشق حيث تتلمذ على يديه الطبيب ابن أبى اصيبعه الدمشقى (ت سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٧٠م) الذى وصف أستاذه فى كتابه "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء" بقوله: "كنت أجد من غزارة علمه ودراسته شيئاً كثيراً، وكان لا يذكر دواء فى جوابه لمن يسأله الأويعين فى أى مكان من ديوسقوريدس وجالينوس."[٤] وقد توفى ابن البيطار فى دمشق (سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م) من عشبة سامة أكلها أثناء تجاربه فمات شهيداً للعلم[٥]. وإلى جانب هذه المؤتمرات الطبية هناك أيضاً تأثيرات معمارية نجمت عن هذه العلاقات الودية بين البلدين مثال ذلك ما يروى عن الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ،

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٢) تراث الإسلام . القسم الثالث ص ١٣٢ حاشية (عالم المعرفة، الكويت سنة ١٩٧٨).

(٣) طبع كتاب ابن البيطار فى بولاق فى أربعة مجلدات سنة ١٨٧٤م وترجمة إلى الفرنسية المستشرق الفرنسى لكلرك. راجع Leclerc (Lucien): Histoire de la Medecine arabe 2 tomes, Paris 1867

(٤) ابن أبى أصيبعه: عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ج٢، ص ١٢٣ (القاهرة سنة ١٨٨٢) وقد نشره حديثاًفؤاد رضا بمكتبة الحياة بيروت.

(٥) المقرى : نفح الطيب ج٤، ص ٣٤٨ (طبعة محى الدين عبد الحميد).

أنه طلب من العاهل البيزنطى نيقفور فوكاس Nicephoras Phocas أن يرسل اليه خبيراً فى صنع الفسيفساء، كى يعمل على تزيين الزيادة المعمارية فى المسجد الجامع بقرطبة، أى تزيين جدار المحراب وباطن القبة الكبرى للمسجد، فاستجاب الإمبراطور لطلبه وزوده بهدية من الفسيفساء تقدر بثلاثمائة وعشرين قنطاراً وصانعاً ماهراً مختصاً فى تنزيل الفسيفساء. وقد أمر المستنصر بإنزال الصانع والتوسعة عليه، ورتب معه جملة من مماليكه لتعلم الصناعة، فوضعوا أيديهم معه فى الفسيفساء المجلوبة، وصاروا يعملون معه فأبدعوا وأربوا عليه، واستمروا بعد ذلك منفردين دون الصانع القادم، إذ صدر راجعاً عند استغناء عنه، بعد أن اجذل له المستنصر الصلة والكسوة. وهذا الى جانب السوارى أو الأعمدة الرخامية التى ساهمت بها القسطنطينية فى بناء مدينة الزهراء على عهد والده الخليفة عبد الرحمن الناصر وعددها مائة وأربعون سارية(١).

والواقع إن علوم اليونان وأسماء أبطالها، كانت معروفة ومألوفة بين الأندلسيين، فيروى المقرى أن الشاعر الزجال الأندلسى سعيد بن عبد ربه (ت سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢م) وهو ابن عم أو بن أخ صاحب العقد الفريد أحمد بن عبد ربه (ت سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠م)، كان معنيا بكتابات الأغريق وعلوم الأوائل فى الطب والفلسفة.(٢) كذلك يروى المقرى أيضاً أن المغنى العراقى الفارسى الأصل أبا الحسن على بن نافع الملقب بزرياب هاجر من بغداد الى الأندلس هو وفرقته وأولاده فى أول عهد امير قرطبة الأموى عبد الرحمن الثانى أو الأوسط سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٣م. وكان زرياب الى جانب تاثره بالموسيقى والألحان الفارسية التى تعلمها على أستاذه اسحاق الموصلى فى بغداد، فإنه تاثر أيضاً بالموسيقى اليونانية

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢، ٢٣١/ الحميرى: الروض المعطار ص ٨٠ . ٨٢.

(٢) راجع (بالنثيا) : تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٥٦، ص ٤٦٣ تعريب حسين مؤنس.

التى وضعها العالم اليونانى المصرى بطليموس القلوذى Claudius Patolomy (ت سنة ١٧٠م) وأنه حفظ منها . على حد قوله . عشرة آلاف مقطوعة بألحانها[١]. ومن المعروف أن كتاب بطليموس عبارة عن موسوعة يونانية فى الرياضيات والفلك والجغرافيا والموسيقى ويسمى الكتاب الكبير فى الحساب Megale Matematike وقدح حور العرب كلمة مجال إلى مجسطى فقالوا كتاب المجسطى لبطليموس. ولقد استفاد منه علماء المسلمين وشرحوه وأضافوا اليه.

ويقال أن الكتاب ترجم الى العربية على يد الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد[٢].

وفى مجال الفلسفة هناك الفيلسوف الكبير أبو الوليد محمد بن رشد القرطبى (الحفيد) Averroes (ت سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨م) الذى عاش فى بلاط دولة الموحدين بالمغرب والأندلس وتمتع بتأييد وتشجيع الخليفة العالم أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، الموحدى (٥٥٧ . ٥٧٩ هـ / ١١٦٢ . ١١٨٤م) الذى كان مهتماً بفلسفة أرسطو Aristot (٣٨٤ . ٣٢٢ ق.م) وأنه هو الذى أشار على ابن رشد بشرح كتبه. ومن المعروف أن أرسطو أنكر الخلود والبعث وصرح بأنه على المرء إلا ينتظر ثواباً أو عقاباً غير ما يلقاه فى الحياةالدنيا. ولا شك أن ابن رشد لم يتحرج من ذكر ذلك ولم يحرص فى ترجمته لأرسطو حرص غيره من فلاسفة العصور الوسطى . مسلمين وغير مسلمين . على تقريب وجهات النظر بين آراء أرسطو من ناحية، وتعاليم الأديان السماوية من ناحية أخرى، وإنما اختار أن يعبر عن اراء أرسطو تعبيراً صادقاً كما فهمها من أرسطو. ولا شك أنه فعل ذلك بتشجيع الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف الذى كان مهتماً بفلسفة أرسطو ولاحظ

(١) المقرى : نفح الطيب ج٤، ص ١٢٣ وكذلك (أوليرى: مسالك الثقافة الأغريقية الى العرب ص ١٥٧ ترجمة حسان تمام.

(٢) عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ١٢٥ وما بعدها (بيروت سنة ١٩٧٠ دار العلم للملايين).

قلق وغموض العبارات التى نقلت عنه[١]. ولهذا اشتهر بشروحه التى امتازت بالأمانة والوضوح فى الترجمة والقوة فى الشرح. وقد بلغ من حب الأوربيين لها أنهم تخيلوا ارسطو بعمامة على حد قولهم، كما أطلقوا عليه اسم المعلم الأكبر ووصفه الشاعر الايطالى دانتى اليجيبرى فى ملحمته الكوميديا الالهية مع فضلاء الناس أمثال ابن سينا وصلاح الدين الأيوبى والشاعر الرومانى فرجيل، وضعهم فى منطقة الأعراف Limbo بين الجنة والنار تقديراً لأعمالهم. وقد ترجم العالم الإنجليزى مايكل سكوت أعمال ابن رشد الى اللاتينية سنة ١٢٣٠م فى مدرسة طليطلة بأسبانيا فكان أول من أدخل فلسفة ابن رشد إلى أوروبا[٢]. وفى عصر مملكة بنى نصر أو بنىالأحمر فى غرناطة، يشير الوزير الغرناطى لسان الدين ابن الخطيب (مات قتيلاً سنة ٧٧٦ هـ ، ١٣٧٤م) إلى أن حكم الفرس وسياسة اليونان ومكارم الدولتين كانت تدرس فى الأندلس لاسيما لأبناء الطبقة الراقية من الملوك والأمراء وضرب مثالاً على ذلك بالأمير إسماعيل ابن الأحمر بن أبى الحجاج يوسف الذى كان يدرس هذه المادة على ملوك مسيحى الأصل اسمه عباد.[٣] ويضيف بعض المؤرخين الأسبان أمثال Alvaro Galmez Fuerte أن حكم اليونان استمرت تدرس فى الأندلس حتى ايام المورسكيين (أى المسلمين المنصرين) هذا، ويلاحظ فى هذا الصدد أيضاً أن بعض الأندلسيين تسمى بأسماء يونانية مثل اسم هرمس Hermis وهو اسم إله يونانى له مواهب عديدة كالفصاحة والتجارة والسرقة وغير ذلك. وقد تسمى بهذا الاسم الكاتب الفقيه أبو الحكم هرمس الذى عينه الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على كاتباً لولده السيد أبى سعيد عثمان حاكم سبته وطنجه

---

(١) ونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٥٣ . ٣٥٤ تعريب حسين مؤنس.

(٢) أى بعد وفاة ابن رشد بحوالى ٣٢ سنة.

(٣) ابن الخطيب: نقاضة الجراب فى علالة الأغتراب ص ١٠٤ (نشر أحمد مختار العبادى، دار الكتاب العربى بالقاهرة).

(توفى سنة٥٧١ هـ – ١١٧٥م)[١] ومثل اسم أخيل Akhiles بطل حروب طروادة فى آسيا الصغرى (١١٩٢-١١٨٤ ق.م) التى تغنىبها هوميروس فى الملاحم الإغريقية. فقد تسمى بهذا الاسم عباس بن أخيل صاحب شرطة موسى بن نصير[٢] وكذلك الشاعر أبوالقاسم أخيل بن أدريس الذى عاش بمدينة رنده Ronda جنوب الأندلس على عهد الموحدين[٣]. بل أنهم أطقلوا هذا الاسم علىبعض قطع اسطولهم البحرى وقد أشار بذلك المؤرخ الأسبانى القديم لوبث دى ايالا عند قوله إن ملك قشتاله الفونسو الحادى عشر استولى على سفينة غرناطية كبيرة من الطراز اليونانى تسمى Oxel[٤] وأعتقد أن، هذه التسمية تحريف لكلمة أخيل على أساس أن حرف الأكس X فى الاسبانية القديمة حتى القرن السادس عشر الميلادى كان بمثابة الخاء J (Jota) فى الأسبانية الحديثة، فضلا عن أنه يمثل حرف الخاء ايضاً فى اللغة اليونانية. وبهذه المناسبة نذكر أن الكاتب الأسبانى ميجل ثربانتس Miguel Cervantes (١٥٤٧ . ١٦١٦م) كتب قصته العالمية دون كيخوته Don Quijote مستخدماً حرف X مكان حرف J مما جعل الأنجليز يسمونها Don Quixot دون كويكزوت، كما أطلق عليها الفرنسيون دون كيشوت وهكذا نرى مما تقدم وضع الأندلس الجغرافى والسياسى فى قلب أوربا وارتباطها بالممالك اللاتينية المجاورة غرباً، وبالوطن الأسلامى الأم وبالدولة البيزنطية شرقاً،كان من وراء انتشار هذه المؤثرات اللاتينية واليونانية فى الرواية الأندلسية.

---

(١) ابن ابى زرع: روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص ١٩٤ (الرباط سنة ١٩٧٣).

(٢) ابن قتيبة : الأمامة والسياسة ج١، ص ٨.

(٣) المقرى : نفخ الطيب ج ٥، ص ٣٣٣ . ٣٣٤.

(٤) أنظر (Lepez de Ayala: Cronicas de los Reyes Castilla tomo I P. 280)